الباب الأول

نوابغ من الشرق

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

النبي محمد ﷺ

مالت الشمس نحو الغروب وآذنت بمغيب، وتجهم الكون في ذلك اليوم الصائف منذرًا باقتراب حادث رهيب. وشعر المسلمون في المدينة وما تبعها من آفاق شعورًا حزينًا يخالطه الخوف والجزع، ويساوره الإشفاق والفزع، وكأنهم مقبلون على رزء أليم، وتساءلت القلوب والنفوس عما تجد من قلق، وما تحس من بأس. وقد كانت مطمئنة مغتبطة بما أفاء الله على رسوله والمؤمنين من نصر مبين، وفتح للإسلام عظيم.

وكان اليوم يوم عائشة من زوجاته عليه السلام، وكانت تعاني من الصباح ألمًا في رأسها، واكتئابًا في نفسها، وأقبل لزيارتها في الأصيل والدها الصديق أبو بكر، فشكت إليه ما تشعر به وما تعانيه، فواساها مواساة الأب الرحيم لابنته العزيزة، ونصحها بالراحة، وتناول بعض العقاقير.. وبعد ساعة خرج لشأنه، وهو يدعو لها بالشفاء ويوصيها بالصبر الجميل حتى يزول عنها ما تشعر به من الآلام. ولكنها ما كادت تخلو لنفسها طويلًا حتى عاودها «الصداع» في حالة شديدة، فصارت تئن وتتأوه في صوت مسموع.. وبينما هي كذلك، إذ طلع عليها النبي محمد ﷺ، فسمعها تئن قائلة:

- وا رأساه... وا رأساه..!

فأقبل عليها في رفق وحنان.. حنان الزوج الوفي البار، ورفق الرسول الكريم، وكان ﷺ قد بدأ يحس في ذلك اليوم نفسه - ومنذ الصباح أيضًا - بألم في الرأس، وبحرارة الحمى تنساب في بطء إلى جسمه الشريف، ولكنه كان يكتم آلامه، ويغالبها بقوة صبره وإيمانه، فلما رأى عائشة تتألم وتتوجع أوسع لها من رحمته، وأراد أن يشعرها بمشاركته لها في الألم، فقال لها:

- بل أنا والله يا عائشة وا رأساه..

فلما سمعت عائشة شكوى الرسول جزعت جزعًا شديدًا، ونسيت ما تحس به من آلام.. فإنه ﷺ ما شكا من داء طول حياته، ولا تأوه يومًا من ألم، وقد جاهد ما جاهد

في سبيل الله، وقام بالدعوة لدينه في تعب وعناء، وحمل ما حمل من شدائد، فما وهنت قوته، ولا ضعفت عزيمته، ولا استسلم لمرض، فماذا به اليوم، وقد صارحها بما لم يصارحها به من قبل، وشكا مما لم يعتد أن يشكوه؟.. هل كان يريد أن يشعر عائشة بالتأسي والتصبر حين تسمعه يتألم، ويشاركها في آلامها، أم اقتربت الساعة.. ساعة الفراق ودنا أوان الوداع؟.

ورأى الرسول ﷺ ما أصاب عائشة من فزع وجزع حين سمعت توجعه، فأشفق عليها وجعل يلاطفها كعادته، ثم ابتسم وأراد أن يسري عنها، فقال لها في دعابة:

- وما ضر يا عائشة لو مت أنت قبلي، فقمت إليك فكفنتك، وصليت عليك ودفنتك..!

فأجابت عائشة:

- ذلك يا رسول الله خير ما أتمناه.. لا جعلني الله أرى يومك..!

وسكتت قليلًا، ونظرت إلى وجهه ﷺ، فوجدته يبتسم، وعرفت دعابته فابتسمت، وغلبتها طبيعة الأنثى وغيرة الزوجة، واستيقظ فيها حب الحياة والحرص عليها مع زوجها رسول الله دون غيرها من زوجاته، فقالت له رضي الله عنها:

- ليكن ذلك حظ غيري من زوجاتك يا رسول الله.. والله لكأني بك وقد رجعت بعد دفني إلى بيتي، فأعرست فيه ببعض نسائك!

فابتسم الرسول وقال لها:

- يا عائشة.. ما عند الله خير وأبقى..!

فسكنت نفس أم المؤمنين، واطمأنت إلى وجوده معها، ونسيت بدعابته ولطفه وطيب حديثه ما كانت تشعر به من مخاوف وآلام، ثم جاء وقت الصلاة، فخرج إلى المسجد.. وخرجت إلى حيث تصلي مع أمهات المؤمنين والمؤمنات. ولما انتهت الصلاة عادت إلى بيتها وخلت إلى نفسها، فعادت إليها المخاوف، وذكرت تعريض رسول الله باقتراب أجله، وتذكيره لها بما عند الله، وإنه خير وأبقى، وكان رسول الله بعد عودته من حجة الوداع إلى المدينة، قد اعتاد أن يلمح في بعض الأوقات باقتراب أجله، وقد نزلت عليه أثناء تلك الحجة هذه الآية الكريمة: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة:3].

وكان الله قد أتم نعمته على نبيِّه وعلى المسلمين بالنصر المبين، والفتح الأكبر - فتح مكة - الذي أقبلت بعده سائر قبائل العرب أفواجًا، أفواجًا يدخلون في دين الله، ويدينون لمحمد بالعهود والمواثيق، وقد صدق الله وعده وأعز جنده.

وخرج رسول الله في السنة العاشرة للهجرة - بعد هذا الفتح بعامين - ليحج بيت الله بمكة مع جموع المسلمين، فاجتمع وراءه مائة وعشرون ألفًا من المهاجرين والأنصار وغيرهم من وفود القبائل العربية، وولى على المدينة في غيبته صحابيًا كبيرًا حسن الرأي والتدبير هو «أبو دجانة الأنصاري».

وكان مع النبي أهله ونساؤه، وقد ركب ناقته «القصواء» في الخامس والعشرين من ذي القعدة، وسار بهذا الجمع الزاخر تحدوهم رعاية الرحمن، ويعمر قلوبهم صادق اليقين والإيمان، وتملأ نفوسهم الغبطة بالمسير إلى بيت الله الحرام.. حتى إذا بلغوا «الحُلَيفة» بضم الحاء وفتح اللام، نزلوا عن ركائبهم، وباتوا ليلتهم، ثم أصبحوا، فأحرم رسول الله، وأحرم معه المسلمون، فلبس كل منهم إزارًا وردًا، وحقق ذلك المساواة بينهم بأجلى ما يهدف إليه الإسلام، ثم تقدم الرسول، فرفع يديه إلى السماء، وتوجه إلى الله بالتلبية، والمسلمون من ورائه يلبون، ونادى والجميع يرددون:

- لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. الحمد والنعمة والشكر لك لبيك.. لبيك لا شريك له لبيك!.

وتجاوبت أصداء هذا الدعاء الروحي في جميع الأرجاء، وأحيت هذه التلبية تلك الفلاة الصامتة، فاهتزت جوانبها من روعة هذا الدعاء. ثم انطلق الركب برجاله ونسائه، ووفوده وألوفه، يشق الطريق بين المدينة ومكة، في أمواج من الجموع المتتابعة على سفن الصحراء، والنبي ﷺ في المقدمة، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر صحابته وقادة المسلمين، حتى بلغوا «أم القرى» في الرابع من ذي الحجة، وقد طووا في هذا السفر الطويل تسعة أيام.. ولما أقبل النبي على المسجد الحرام، رفع يديه إلى السماء، وقال:

- اللهم زده تشريفًا وتعظيمًا.. اللهم زده مهابة وبرًا وتكريمًا.

ثم نزل عن ناقته القصواء، فدخل المسجد، وطاف سبعًا بالكعبة.. ثم صلى ركعتين عند مقام إبراهيم، ثم شرب من ماء زمزم، وسعى بين الصفا والمروة سبعًا راكبًا ناقته، وكان إذا صعد الصفا يقول:

- لا إله إلا الله والله أكبر، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده.

وإذا نزل إلى المروة يقول:

- الحمد لله.. ولا إله إلا الله والله أكبر.

وكان المسلمون من ورائه يقولون ما يقول، ويفعلون ما يفعل، وكان ربيعة بن أمية ابن خلف يردد وراءه ما يقول بصوت جهوري يسمعه الحجيج.

وفي الثامن من ذي الحجة من السنة العاشرة رحل النبي ومن معه إلى «مِنَى» فأقاموا بالخيام، وصلوا فروض اليوم، وباتوا بها حتى مطلع الفجر.. فصلى بهم صلاة الصبح، حتى إذا بزغت الشمس، ووضح الطريق، تقدم الحجيج بناقته حتى جبل عرفات.. فأحاط به الألوف، وهم يلبون ويكبرون، وضربت للنبي ﷺ قبة بنمرة - وهي موضع بعرفات - فنزل بها، حتى زالت الشمس، فأمر بناقته القصواء فركبها، وسار حتى أتى بطن الوادي من أرض عرفة، وهناك نزل عليه بعد صلاة العصر قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة:3].

فلما سمع أبو بكر هذه الآية بكى بكاءً شديدًا، فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟».

قال: «أبكاني إنا كنا في زيادة من ديننا.. فأما إذ أكمل، فإنه لم يكمل شيء إلا نقص».

فقال النبي ﷺ: «صدقت» وبكى كثير من المسلمين.

وكانت هذه الآية إيذانًا بانتهاء رسالته في هذه الدنيا ثم قام ﷺ فركب ناقته حتى بلغ وسط عرفات، فوقف هناك وألقى خطبة الوداع التي تنبأ فيها باقتراب أجله، فقال:

«الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

«أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

«أما بعد: أيها الناس. اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد

عامي هذا في موقفي هذا.. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا.

«ألا هل بلغت.. (فقال الناس نشهد أنك بلغت، وأديت ونصحت).

فقال: «اللهم فاشهد.. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. ألا وإن ربا الجاهلية موضوع[1]. وأن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وأن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب[2].. وأن أثر الجاهلية موضوعة إلا السدانة والسقاية. والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر. وفيه مائة بعير. فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

«أيها الناس.. إنما النسيء[3] زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا، يحلونه عامًا، ويحرمونه عامًا، ليواطئوا عدة ما حرم الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم: ثلاث متواليات، وواحد فرد، ذوالقعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان - ألا هل بلغت؟.. اللهم فاشهد.

«أيها الناس.. إن لنسائكم عليكم حقًا، وإن لكم عليهن حقًا: ألا يوطئن فراشكم غيركم، ولا يدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن، فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن. وأن أطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

«وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا[4]. أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرًا - ألا هل بلغت؟.. اللهم فاشهد.

«أيها الناس.. إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، فلا ترجعن بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني تركت فيكم ما أن أخذتم به لن تضلوا بعده أبدًا: كتاب الله.. ألا هل بلغت؟.. اللهم فاشهد.

---

(1) موضوع أي مهدر لا يحل. (2) قتل عامرًا جماعة من قبيلة هذيل بالجاهلية.

(3) النسيء هو تحليل الأشهر الحرم، وتحريم الأشهر الحلال بالنسيء أي التأخير حسب أغراضهم.

(4) أي ضعيفات أي لا يملكن قوة ودفاعًا عن أنفسهن كالرجال.

«أيها الناس.. إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم.. ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى.. ألا هل بلغت؟.. اللهم فاشهد.. فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

«أيها الناس.. إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا تجوز لوارث وصية. ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر، من ادعى لغير أبيه أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله، والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه خير ولا عدل.. والسلام عليكم ورحمة الله.

ولما أتم الرسول ﷺ خطابه نزل عن ناقته، وأقام حتى صلى الظهر والعصر. ثم بارح عرفات هو ومن معه إلى المزدلفة، فقضى بها ليلة، وفي الصباح ذهب إلى المشعر الحرام، ثم إلى منى، وألقى الجمرات، ثم نحر الهدى، وأتم حجته، وكانت حجة الوداع التي لم ير بعدها مشاعر الحج، ولا البيت الحرام مرة أخرى.

***

عاد الركب بعد الحج إلى المدينة، يتقدمه محمد ﷺ. فلما أقبل عليها كبر ثلاثًا، ثم رفع يديه إلى السماء، وقال:

- لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الحمد لله وهو على كل شيء قدير. آيبون تائبون عابدون، ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده.

وأقبلت وفود العرب زمرًا زمرًا إلى يثرب ممن لم يكونوا قد أسلموا لمبايعة الرسول ﷺ والدخول في الإسلام، والانضواء تحت لوائه، وعنت الوجوه للحي القيوم، وتتابع الناس من كل مكان أفواجًا أفواجًا في شبه الجزيرة العربية يؤمنون بالله ورسوله، ويدينون بالدين الجديد. وهنا نزلت «سورة الفتح» فقال الله لنبيه الكريم: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر].

فلما قرأها عليه جبريل قال محمد ﷺ: «نعيت لي نفسي»[1] فقال جبريل:

(1) نعيت بضم النون وسكون التاء.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾. وقد سميت هذه السورة «سورة الوداع». ولم ينزل بعدها سورة ولا آية أخرى من القرآن الكريم. وكان رسول الله بعد نزولها يستغفر الله كثيرًا ويتوب إليه كثيرًا، ويسبح بحمده، ويعرض باقتراب أجله، وانتهاء رسالته في هذه الدنيا، إلى أن مرض ﷺ في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة الموافقة أواخر مايو عام 632 الميلادية.

واستبدت الحمى بجسمه الشريف، وأيقن أنه عما قريب ستصعد روحه الطاهرة إلى السماء، وسوف يلاقي الرفيق الأعلى، ولكن الداء لم يقعده عن خدمة دينه وأداء واجبه نحو الله ونحو الناس، فقد كانت روحه أقوى من جسده، وعزيمته أشد وأقوى من دائه، وقد جهز وهو مريض جيشًا بقيادة أسامة بن زيد لمحاربة هؤلاء الذين مكروا بالإسلام والمسلمين في بلدة «أبني»[1] من فلسطين في الخامس والعشرين من صفر، قبل أن تصعد روحه إلى بارئها بسبعة عشر يومًا، وكان القوم قد قتلوا زيدًا ابن حارثة والد أسامة في موقعة مؤتة، فخرج ﷺ - وهو مريض - يودع هذا الجيش وقائده ويوصيه قائلًا:

- أغز باسم الله في سبيل الله، وقاتل من كفي..

سمع أسامة لوصية رسول الله، وخرج بجيشه في الغروب، وعاد الرسول إلى المدينة، وقصد بيت عائشة، فسمعها تئن وتتوجع، وتقول: «وارأساه..» فتوجع لوجعها، بل توجع لما يشعر به كذلك من آلام الحمى التي بدأت تدب في جسمه الشريف، وبات في بيت عائشة هذه الليلة، ولكنه أرق فيها أرقًا طويلًا.. وكان الوقت صيفًا، فأيقظ مولاه «أبا مويهبة»[2] وخرج من البيت في صحبته إلى ظاهر المدينة، يستروح بالرياضة، ويستنشق نسيم الليل، مخففًا عن نفسه.. وفيما هما سائران، إذ عرج ﷺ على «البقيع» حيث مقابر المسلمين، فلما بلغه قال لرفيقه أبي مويهبة:

- إني أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي.. ودخل يتصفح وجوه المقابر، ثم وقف بينها ومولاه وراءه، وقال:

- السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما لم يصبح الناس فيه.. إني أنظر بعدي، فأرى الفتن وقد أبلت كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها.. الآخرة شر من الأولى!

(1) أبني بضم الهمزة وسكون الباء. (2) مويهبة بضم الميم وفتح الواو وسكون الياء.

ثم استغفر لأهل المقابر، ولما آن له أن يعود التفت إلى أبي مويهبة، وقال:

- إني أوتيت مفاتيح الخلد في الدنيا، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة.

فقال أبو مويهبة:

- بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فخذ مفاتيح الخلد في الدنيا، ثم الجنة!

فقال الرسول:

- لا والله يا أبا مويهبة.. لقد اخترت لقاء ربي والجنة.

وعاد إلى بيت عائشة وقد اقترب الفجر، فذهب إلى المسجد.. وكان المسلمون قد اجتمعوا للصلاة فصلى بهم، ولم يمكث معهم بعد الصلاة، بل أسرع إلى مضجعه في بيت عائشة، فنام واستراح حتى صلاة الظهر، فذهب إلى المسجد، فصلى.. وعلم أن جماعة من المسلمين ينتقدون تأمير أسامة على الجيش الذي خرج لغزو «أبني» لأنه ما زال شابًا في سن العشرين، فبعد أن أدى الصلاة صعد المنبر، وكان يشعر بالتعب، فحمد الله. ثم قال:

- أما بعد أيها الناس، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأمير أسامة بن زيد!.. ولئن طعنتم في تأميري أسامة بن زيد، فقد طعنتم في تأميري أباه من قبله.. وأيم الله إنه كان لخليقًا بالإمارة، وأن ابنه من بعده لخليق بها.. وإنهما لمن أحب الناس إلى الله ورسوله، وأنهما لمظنة لكل خير، فاستوصوا بأسامة خيرًا، فإنه من خياركم..

ثم نزل من المنبر، وقد أخذ منه التعب مأخذه، فأشار إلى علي بن أبي طالب ليعينه على ضعف جسمه، فأسرع إليه هو وعمه العباس بن عبد المطلب، وكانا قريبين من المنبر، فتوكأ عليهما، حتى دخل بيت عائشة - وقدماه لا تكادان تحملانه - وأبو بكر وراءه.

ولما اطمئن في فراشه رفع نظره إلى السماء.. وسكت برهة، كان يناجي فيها ربه، ثم قال في تقبل وخشوع:

- سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له.. أستغفرك اللهم وأتوب إليك.. ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير.

وجلست عائشة وأبو بكر، والعباس وعلى حوله صامتين، وقد علت وجوههم

الكآبة، وسيطر عليهم الجزع، ونظروا إلى رسول الله في فراشه.. فرأوه قد دخل فيما يشبه النوم، ولكنه ما لبث أن تنبه، وأشار إلى علي والعباس بالخروج، فقاما مسلمين مودعين.

وفي المساء، خرج متوكئًا على مولاه أبي مويهبة، فلقيه علي بن أبي طالب، فعاونه حتى دخل بيت زوجته ميمونة بنت الحارث، وكان اليوم يومها.. فما كاد يجلس حتى شعر بمرضه وقد اشتدت وطأته، وعظمت آلامه، فدعا زوجاته أن يحضرن إليه، فلما رأينه على غير ما يعهدن فيه من صحة البدن وجمال العافية فزعن إلى البكاء، واستبد بهن الأسى، وعرضت كل واحدة منهن أن يمرض في بيتها، فاستأذنهن أن يمرض في بيت عائشة أم المؤمنين لقربه من المسجد، فقبلن فخرج يتوكأ على بعض أهله، وجسمه في تثاقل وضعف، وقدماه في وهن لا تحسنان السير، وفي عناء لا تكادان معه تحملانه ﷺ.. حتى إذا بلغ بيت عائشة نام على فراشه فأرخى عينيه، وأغمض جفنيه، واتجه بوجهه الشريف إلى السماء، ودخل فيما يشبه النعاس. ثم تنبه ﷺ، وعلى شفتيه ابتسامة مشرقة أحيت الأمل فيمن حوله، ثم عاد إلى ما يشبه السنة، وظل هذا شأنه بين النوم واليقظة، وبين الإغماء والانتباه.. وكانت حرارة الحمى في ازدياد حتى جعلت على القطيفة التي غطوا بها جسده تصيب كل من يضع يده عليها.

وفي الفجر خفت حرارة الحمى، وتنبه رسول الله ﷺ، وعرف موعد الصلاة، فقام على الرغم من مرضه وشدة ألمه، لأداء فريضة الفجر في مسجده مع الناس، فقد كان ﷺ لا ينقطع عن الصلاة مع الصحابة، فصلى بهم في بطء وعناء.. ثم عاد إلى فراشه في تثاقل وإعياء وضعف، فنام نومًا هادئًا، لم يزعجه فيه الألم، ولم يؤرقه فيه الداء، ثم استيقظ وقت الضحى، فشعر بشيء من الراحة، وانتعاش النفس، وانكسار الحمى.

وتفاءلت عائشة بتحسن صحته ﷺ في ذلك اليوم.. وزاره عمه العباس، وعلي بن أبي طالب، وبعض آله.. فاطمأنوا لحاله، واغتبطوا بما رأوه من سكون دائه، وخالجهم الأمل القوي في شفائه، وأبصروا من يقظته وحسن انتباهه وقوة نفسه، ما بعثهم على الرجاء في شفائه.

وخرج عليّ بن أبي طالب وعمه العباس من عنده ﷺ، في تلك الساعة الهادئة الآمنة، فهرع الناس إلى علي يسألونه عن صحة رسول الله في شوق شديد، فقالوا:

- يا أبا الحسن.. كيف أصبح رسول الله ﷺ؟

فأجاب علي:

- أصبح بحمد الله بخير.. وسوف يكون عما قريب بارئًا من مرضه!..

فاطمأن الناس، وهدأت قلوبهم، وانكشف عنهم ما تملكهم من هموم وأحزان، وما كاد علي بن أبي طالب وعمه العباس يتجاوزان الناس حتى أخذ العباس بيد علي، وأسر إليه قائلًا:

- ما هذا يا ابن أخي؟.. أفلا تدري؟.. بعد ثلاث أحلف فيها بالله، أن محمدًا مريض قد أرهقه المرض، ولقد عرفت الموت في وجهه، كما كنت أعرفه في وجه بني عبد المطلب.. فانطلق بنا، فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه، وإن كان في غيرنا أمرناه، فأوصى بنا الناس!

فأبى علي أن يعود إلى رسول الله ﷺ ليحدثه في ذلك، وقال:

- والله يا عمي لا أفعل.. ولئن منعنا هذا الأمر، لا يؤتينا إياه أحد بعده..!

***

كان الرسول ﷺ قوي النفس، سامي الروح، لم تتخلف عنه عزيمته، ولم تضعف إرادته، على الرغم من شدة دائه، ومعاناة بلائه.. ولم ينقطع عن الصلاة مع أصحابه في المسجد إلا قبيل وفاته بثلاثة أيام. وخرج ﷺ في ذلك اليوم إلى المسجد، ففرح الناس، وأقبلوا عليه.. فصلى بهم، ثم صعد المنبر فأنصت الجميع، وكأنما على رءوسهم الطير، ولكنه لم يخطب كعادته، بل أفضى إليهم بكلمة قصيرة كانت أبلغ في الدلالة على هوان هذه الدنيا، وضعف شأنها، وأن الآخرة خير وأبقى، قال ﷺ:

- أيها الناس إن عبدًا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله..!

ثم سكت، فوجم الناس، وسادهم الحزن والأسى.. وأدركوا أن النبي ﷺ يعني بهذا القول نفسه، وينبئهم بقرب وداعه لهم، وفراقه لهذه الدنيا.. وبكى أبو بكر رضي الله عنه، وقال في صوت ضعيف متهدج:

- فديناك يا رسول الله بأنفسنا وأبنائنا وما ملكت أيدينا..

واشتد به البكاء، فأشار إليه النبي أن يمسك عن بكائه، ثم أشار إلى أبواب المسجد، فأمر أن تقفل جميع الأبواب إلا باب أبي بكر.. فلما أقفلت، خاطب الصحابة قائلًا:

- إني لا أعلم أحدًا أصدق عندي من أبي بكر في صحبته وماله.. ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن صحبة إسلام وأخوة، حتى يجمع الله بيننا عنده!

ولم يستطع النبي ﷺ أن يتابع الكلام لضعف صحته، فنزل من المنبر يريد أن يعود إلى بيته، ولكنه ما لبث أن التفت إلى الناس، فانتبهوا إليه يسمعون ما يقول، فقال ﷺ:

- يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرًا، فإن الناس يزيدون والأنصار لا يزيدون، وأنهم كانوا عيبتي[1] التي أويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»!

وعاد محمد ﷺ يساوره الداء، ويعود إليه في شدة وبأس، وكان يغالبه بقوة إرادته وشدة عزمه، وينازع آلامه ويحمل على نفسه للخروج إلى الناس في المسجد ليوصيهم، ويعهد إليهم، قبل أن يفارق الدنيا، ويرحل عنها إلى دار النعيم.

وأراد أن يخرج إلى الناس، ولكن حرارة الحمى استبدت بجسده الشريف، وكادت تعجزه، فاستعان بالماء البارد، وقال لأهله:

- أريقوا عليَّ سبع قرب من ماء الآبار حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم..!

وجيء بماء الآباء كما طلب ﷺ، وأقعده أزواجه في مخضب[2] لحفصة، وصببن عليه ماء القرب السبع حتى أشار بيده قائلًا:

«حسبكن.. حسبكن..» ثم لبس ثيابه، وعصب رأسه، وهو يقول:

- الحمد لله. نحن معشر الأنبياء، يشدد علينا البلاء، وتضاعف لنا الأجور.. ثم خرج يتوكأ على عمه العباس، وعلي بن أبي طالب، والفضل بن العباس، فدخل المسجد يخطو خطوًا وئيدًا حتى بلغ المنبر.. فتحامل على نفسه، وساعده الفضل وعلي، فجلس على أسفل مرقاة فيه.. ثم حمد الله وأثنى عليه، وقال:

- أيها الناس: بلغني أنكم تخافون من موت نبيِّكم.. هل خلد نبي قبلي ممن بعث

(1) العيبة ما يجعل فيه الثياب كالصندوق، والمراد هنا الملجأ والمكان والمأوى.

(2) المخضب: الطست.

الله، فأخلد فيكم؟.. ألا أني لاحق بربي، وإنكم لاحقون بي، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرًا، وأوصى المهاجرين فيما بينهم.. فإن الله تعالى يقول: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر].

وإن الأمور تجري بإذن الله، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد. ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض، وتقطعوا أرحامكم؟

أوصيكم بالأنصار خيرًا، فإنهم الذين تبوأوا الدار من قبلكم، أن تحسنوا إليهم.. ألم يشاطروكم في الثمار، ألم يوسّعوا لكم في الديار، ألم يؤثروكم على أنفسهم؟.. ألا وإني فرط لكم، وأنتم لاحقون بي، وإن موعدكم الحوض، فمن أحب أن يرده علي.

كانت هذه الوصية هي آخر وصاياه ﷺ.. ثم عاد إلى بيت عائشة يتوكأ على عمه العباس، وعلي بن أبي طالب، حتى أوصلاه الفراش واشتدَّ المرض برسول الله، وتضاعف الخطر، وقلق أهله وأصحابه.. وعجزت وسائل العلاج المعروفة في ذلك الحين عن شفائه، واقترحت زوجته ميمونة بنت الحارث أن تصنع له شرابًا عرفت طريقة إعداده من قريبة لها تدعى أسماء، كانت قد تعلمتها أثناء هجرتها بالحبشة.. فصنعته ميمونة، وانتهز آل رسول الله فرصة إغماءة من إغماءاته، وصبوه في فمه بحذر شديد.. فلما أفاق، قال لهم:

- من صنع هذا الشراب؟.. ولم فعلتموه؟

فقال العباس:

-خشينا يا رسول الله أن تكون بك ذات الجنب، فأعطيناك هذا الشراب.

فقال ﷺ:

- ذلك دواء ما كان الله عز وجل لينقذني به.

وتعذر عليه ﷺ أن يخرج للصلاة بالناس، فأناب عنه أبا بكر، فصلى بهم سبع عشرة صلاة.

ودخلت ابنته الزهراء فاطمة ذات يوم - وهو في هذه الحال من الخطر على حياته - فعز عليها أن تراه طريح الفراش، وقد اقترب منه الأجل، وضعف من شفائه الأمل، فبكت ونادت: «وا أبتاه..» فتنبه من إغمائه، ونظر إليها، ثم قال بصوت خافت.

- مرحبًا بك يا فاطمة.. لا كرب على أبيك بعد اليوم..!

يريد ﷺ أنه سينقل من هذا العالم - عالم الكرب والآلام - إلى عالم الراحة والسلام، ثم أشار إليها، فاقتربت منه، فوضع أذنها على فمه الشريف، وأسر إليها بكلام. فبكت رضي الله عنها، وبكى الحاضرون، ثم عاد فأسرَّ إليها في أذنها الأخرى بكلام آخر فابتسمت واستبشرت، فاطمأن الحاضرون واستبشروا. ولما سئلت رضي الله عنها عما أسر به إليها، قالت: «أسر إلي أنه سيقبض في مرضه هذا، فبكيت، ثم سارني أني أول من يلحق به من أهله، فابتسمت وسررت»!

***

وكانت ليلة الوفاة.. وبلغ الداء أقصاه، واقتربت الساعة، وكانوا يمسحون رأسه ووجهه بالماء البارد ليخففوا عنه من آلام الحمى، وشدة الحرارة، وكان كلما استفاق من إغمائه أدخل يده في الإناء، ومسح جبهته ورأسه، وقال:

- اللهم أعنِّي على سكرات الموت.. لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات.

- اللهم إنك تأخذ الروح بين القصب[1] والعصب والأنامل، فأعني على شدته، وهونه على نفسي!

يا عجبًا لهذه النفس العظيمة التي هزت بعظمتها العالم، وغيرت مجرى التاريخ، وأقامت للناس دينًا قويمًا، وتغلبت على الشدائد والأهوال، تستسلم للموت، وتئن من سكراته، ولكنه القدر، وضعف البشر، وموافاة الأجل، ولكل أجل كتاب.

وأخذ ﷺ يردد هذا القول في ساعاته الأخيرة، كلما أفاق من سكرات الموت، حتى كان الفجر.. فسمع صوت بلال بن رباح يؤذن للصلاة، فكبر معه وأذن بصوت ضعيف، ثم رفع سترًا من حجرته مطلًا على المسجد، فرأى المصلين صفوفًا صفوفًا، فاغتبط وابتسم.. ورآه أبو بكر، فظن أنه يريد الخروج للصلاة، فنكص على عقبه ليفسح له، وكاد المصلون يفتنون في صلاتهم فرحًا بمقدمه، ولكنه أشار إليهم أن يثبتوا ويستمروا.. وأرخى الستر.

ودخل عليه بعد صلاة الفجر رجل من آل أبي بكر، ومعه عود من أعواد السواك

(1) القصب: عظام اليدين والرجلين ونحوهما من العظام.

لم يستعمله، فنظر إليه النبي ﷺ نظرة لم يستطع معها الحديث، ففهمت عائشة أنه يريده، فأخذته من قريبها، ومضغته حتى لان، وأعطته إياه، فأخذه، واستاك به!

وما كاد ينتهي، ويضع السواك بجواره، حتى شعر بضعف شديد. فأشار إلى عائشة أن تأخذه بين ذراعيها، فأسرعت إليه في حنان، واحتضنته في رفق وإشفاق، وأجلسته في حجرها، ونفسها تتطاير أسى ولوعة، فأسند ﷺ ظهره على صدرها، وطرح رأسه على نحرها، وشخص إلى السماء..

قالت عائشة:

- وجدت رسول الله ﷺ يثقل في حجري.. فنظرت إلى وجهه، فإذا بصره قد شخص إلى السماء، وهو يقول: «بل الرفيق الأعلى» فقلت: خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق، وقبض رسول الله بين سحري[1] ونحري.. فمن سفهي وحداثة سني وضعت رأسه على وسادة، وقمت التدم[2] مع النساء وألطم وجهي!

وكانت كلمة «بل الرفيق الأعلى» هي آخر كلماته ﷺ، وروحه الشريفة تصعد إلى جوار الرحمن.

وعاد أبو بكر مسرعًا حين بلغته وفاة رسول الله، وكان في منازل بني الحارث فدخل الحجرة، فوجده مسجى على فراشه.. فوقف برهة واجمًا ذاهلًا.. ثم تقدم إلى جسده الشريف، وكشف عن وجهه، وقبّل فمه، وبكى، وقال:

- بأبي أنت وأمي يا رسول الله. طبت حيًا وميتًا، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لأحد من الأنبياء قبلك، فعظمت عن الصفة، وجللت عن البكاء، ولو كان في موتك اختيار لفديناك بالنفوس.. اذكرنا يا محمد عند ربك!!

(1) السحر: بفتح وسكون أعلى الحلق، والنحر موضع القلادة من العنق.

(2) التدم: أي اضطرب.

obeikan.com